

فلسفة تصنيف العلوم في الحضارة الإسلامية التأسيس والنتائج المعرفية

Philosophy of classification of science in Islamic civilization Foundation and cognitive outcomes

د. الزبير بلهوشات¹

جامعة باجي مختار - عنابة

zoubeirb3@gmail.com

د. محمد رحايلى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

Remmycf@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/11/16 القبول 2020/10/06 النشر على الخط 2021/03/15

Received 16/11/2019 Accepted 06/10/2020. Published online 15/03/2021

ملخص: استهدفت هذه الدراسة التعرف إلى إشكالية تصنيف العلوم عند المسلمين بإتباع المنهج التحليلي القائم على تحليل الأدب والدراسات النظرية لموضوع تصنيف العلوم والحضارة الإسلامية والبحث العلمي. يعد "علم التصنيف" واحدا من أهم المباحث العلمية التي ازدهرت بشكل ملحوظ في الحضارة الإسلامية؛ فقد أصبح بعد فترة وجيزة من انطلاق الحركة العلمية في المجتمع العربي الاسلامي، علما قائما بذاته له مبادئه وأصوله وأهدافه، بالإضافة إلى ممثليه من العلماء والفلاسفة والمفكرين، الذين تصدوا للتعريف به، وبيان مقاصده، وطرقه، ومناهجه في تنظيم المعرفة وحصر مجالاتها وأوجه تحصيلها، وكذا مسالك ترتيبها أصولا وفروعا وأجزاء. وكان من أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن المنهجية الإسلامية في تصنيف العلوم تعالج نوعي المعرفة: العلمية والإيمانية، وينعكس ذلك في اتخاذ الإسلام وتعاليمه منهجا للحياة التي تخضع لقوانين وسنن طبيعية سخرها الله لخلقه، وبذلك تتمايز الحضارة الإسلامية في جمعها بين البعدين المادي والروحي في منظومة حضارية واحدة.

الكلمات المفتاحية: تصنيف العلوم، الحضارة الإسلامية، تأسيس معرفي، نتائج معرفية، بحث علمي

Abstract:

This study aimed to identify the problem of classification of science among Muslims by following the analytical method based on the analysis of literature and theoretical studies on the subject of classification of science, Islamic civilization and scientific research. Taxonomy is one of the most important scientific investigations that flourished remarkably in the Islamic civilization. It became shortly after the scientific movement started in the Arab-Islamic society. To identify it, and the statement of its purposes, methods, and methods in the organization of knowledge and inventory of fields and collections, as well as routes arranged assets and branches and parts. One of the most prominent findings of the study is that the Islamic methodology in the classification of sciences addresses the two types of knowledge: scientific and faith, and this is reflected in the adoption of Islam and its teachings as a way of life that is subject to laws and natural norms God has created to his creatures, and thus distinguish Islamic civilization in combining the physical and spiritual dimensions in a one system of civilization.

Keywords: science classification, Islamic civilization, knowledge foundation, cognitive results, scientific research

¹ - المؤلف المرسل : الزبير بلهوشات . البريد الإلكتروني: zoubeirb3@gmail.com

مقدمة:

يسعى هذا البحث إلى تقديم بعض الملاحظات الأولية حول إشكالية تصنيف العلوم عند العرب، ولذلك لن نعمل فيه إلى تتبع فكرة التصنيف وتطور أشكالها ومختلف القضايا الفكرية والمنهجية والعلمية التي تثيرها، لأن لهذا سياقها الخاص به، ونأمل أن تتاح لنا فرصة قادمة لمعالجة بعض هذه القضايا المتصلة بنظم المعرفة وبأنساق التفكير في العلوم وطرق تحصيلها وما أصاب النظر في تصنيفها من تطورات وتحولات عبر العصور.

لا تخفى أهمية البحث في مسألة تصنيف العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، ولكن الملاحظ هو أن هذا الموضوع لم يحظ بما يستحقه من العناية من لدن المهتمين بتاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، وذلك على الرغم من العناية الخاصة المتميزة التي أولاها العلماء المسلمون لهذا الموضوع منذ المراحل الأولى لتأسيس العلوم في المجتمع العربي، على الرغم من نوعية مساهماتهم العلمية في هذا المجال، وهي مساهمات تعكس جوانب مشرقة من إبداعاتهم العلمية، مما دفع بالمستشرق "فرانز روزنتال" إلى التنويه بالمجهودات العربية في مجال تصنيف العلوم وعرضها بطرق منظمة، إذ جعل مؤلفاتهم ورسائلهم تمثل مشروعاً علمياً بارزاً ومتميزاً عن التصنيفات الإغريقية السابقة.¹

وبالنظر في المؤلفات والرسائل الكثيرة التي خلفها العلماء المسلمون في هذا المجال، عبر التاريخ العربي ومن غير انقطاع أو توقف في أي مرحلة من مراحلها، يتبين لنا غزارة المادة العلمية وتنوعها من مؤلف لآخر، ومن مرحلة تاريخية لأخرى، مما يؤكد عمق انشغال المسلمين بهذا الموضوع منذ المراحل الأولى التي واكبت تأصيل العلوم العربية الإسلامية، وما رافق ذلك أيضاً في العصور اللاحقة من اتصال بالثقافات الأجنبية بواسطة طرق النقل والترجمة المعروفة، وبخاصة بالثقافة الإغريقية التي سبق لها أن عرفت هذا النوع من البحث والدراسة، وذلك في بعض ما أثر عن أفلاطون وأرسطو، على قلته وضآلة قيمته²، مقارنة بتصنيفات العلماء المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم ومسالكهم في تقسيم العلوم وترتيب المعارف، سواء منها تلك التي نبعث من عنايتهم بالقرآن والحديث والشعر، أو تلك التي تجسد جهودهم الكبيرة في العلوم الطبيعية والتجريبية والرياضية... وللتدليل على ذلك هنا، لا بد من التنبيه إلى أنه لم يؤثر عن أفلاطون ولا أرسطو، أنهما خلفا كتاباً مستقلاً في تصنيف العلوم، كما أن هذا التأليف المستقل لم يتحقق في التاريخ الإنساني عامة إلا على يد الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان) المتوفى سنة 339هـ، وذلك في كتابه الشهير "إحصاء العلوم"³، وهذا إذا ما استثنينا محاولتي كل من جابر بن حيان في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، والكندي (ت. 252هـ أو 260هـ)؛ وذلك لأنهما على الرغم من مشاركتهما في تقديم محاولة تصنيفية للعلوم، فإنهما لم يتركيا رسالة أو مؤلفاً خاصاً بهذا الموضوع⁴، حيث جاء تقسيمهما للعلوم في سياق الحديث عن حدود الأشياء والمفاهيم التي عرضا لها في رسالتهما في الحدود.⁵

وعلى الرغم من أن المساهمات العربية في مجال تصنيف العلوم تعد مساهمات نوعية متميزة، فإن أغلب الدارسين الغربيين الذين اهتموا بالتأريخ للعلوم، أو يتتبع مراحل التأليف في هذا الموضوع، قد تجاهلوا تجاهلاً غير مبرر وغير موضوعي، الإشارة إلى دور المساهمات العربية في تطوير علم التصنيف بصفة عامة، بل إنهم أقصوها من مجال التاريخ، حيث انطلقوا من التجربة اليونانية ممثلة فيما عرف عن أفلاطون وأرسطو،

¹ - فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد، مكتبة المثنى، 1963، ص 47-48.

² - عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1992، ص ص 34-36.

³ - الفارابي، أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، حققه وقدم له وعلق عليه عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. 3، 1968، ص. 53.

⁴ - عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، المصدر نفسه، ص. 39.

⁵ - عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط. 2، 1979، ص ص 14-41.

وقفزوا على المؤلفات العربية وتخطوها ليصلوا مباشرة إلى المؤلفات الغربية التي ظهرت في أوروبا منذ بداية النهضة الغربية كما تجسدت في أعمال روجر بيكون (1214-1268م) وفرنسيس بيكون (1561-1625م) وغيرهما.

وبناء على هذا الظرف والمتغيرات، يمكننا طرح التساؤل الرئيس التالي: هل يمكن القول أن علماء المسلمين شاركوا في وضع أسس لهذا العلم للمؤسسة وأنهم كانوا روادا في ذلك أم أنهم لم يكونوا إلا ناقلين لأفكار غيرهم من علماء الحضارات السابقة لهم؟ أو بمعنى آخر ماهي سمات الحضارة العربية الإسلامية التي طبعت علم تصنيف العلوم الذي ورد إلينا وخضع لتطورات متتالية؟

ويمكننا أن نستنبط ثلاثة تساؤلات فرعية للوصول إلى نتائج تخدم موضوع الدراسة وهي كالتالي:

- ماهي خصائص فلسفة تصنيف العلوم في الحضارة العربية الإسلامية؟

- هل يعتمد علماء المسلمين المنهج العلمي في الوصول إلى نتائج أعمالهم؟

- كيف نواجه الإيديولوجيات والنظريات الغربية في هذا المجال؟

وعلى الرغم من كون علم تصنيف العلوم أداة تنظيمية للمعرفة، تسعى إلى ترتيب العلوم، وحصر موضوعاتها ومناهجها وفق تصور فلسفي معين، فقد اختلف بشأنه بين كونه جزءا من فلسفة العلوم، وبين كونه سابقا عليها أو تابعا لها؟ بمعنى أنه بمثابة موقف نقدي لما ينبغي أن تكون عليه العلوم في واقع الحياة البشرية لأن الفلسفة: "تعنى بتحليل أو تبرير المبادئ والمسلمات التي تقوم عليها العلوم".¹ تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف نعرض أهمها فيما يلي:

- توضيح المفاهيم المتعلقة بفلسفة تصنيف العلوم، ومكوناته، توضيحا يتفق مع الواقع الفعلي لعلم التصنيف على ضوء التغيرات المستمرة لعلوم المكتبات والمعلومات

- التعرف على مفهوم تصنيف العلوم ودوره في التكوين الأكاديمي

- تحديد السمات الأساسية لاختصاصي علم التصنيف في ظل التطورات المتسارعة للعلوم

- إبراز مكانة اختصاصي علم التصنيف بين العلوم الأخرى

- تحديد الأدوار والمهارات التي على اختصاصي علم التصنيف التحكم فيها للتكيف مع المستجدات

كما تهدف الدراسة إلى معرفة طبيعة ومستوى علم التصنيف، وذلك من خلال التعرف على مهارات المصنفين المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فإن الذي ينبغي التأكيد عليه هو أن علم التصنيف سواء اعتبر علما قائما بذاته، أو نظر إليه على أنه جزء من التفكير الفلسفي المدرج ضمن ما يعرف بفلسفة العلوم، فإنه لا يكاد ينفك عن النظر الفلسفي، لأن أبرز مهماته تتمثل في تحديد المبادئ المعرفية الأولى التي تتخلل العلوم جميعها، كما أنه يمثل الجانب النقدي للأسس والأنساق العلمية المتعددة سواء بالنظر إلى بعضها كل على حدة، أو بالنظر إلى أنماط العلاقات وأشكال الارتباط التي تجمع بين أنواع العلوم أو تتخللها أفقيا أو عموديا. ومن هنا فهو يسعى إلى الكشف عن حدود العلوم ومجالات عملها، وكذا بيان تقاطعاتها. كما يهدف، بصفة عامة إلى الوقوف على موجهاً إخضاعها لنمط معين في التقسيم والترتيب، بحسب طبيعتها وموضوعاتها وغاياتها. فهو إذن من صميم التفكير الفلسفي الذي يعنى بتنظيم أطر المعرفة البشرية، ولذلك يقتزن بشكل قوي عند المهتمين، برؤاهم المنهجية لطبيعة العلوم، وحدودها وكذا العلاقات التي تنتظمها. وسوف نتضح هذه الأبعاد الدلالية لتصنيف حين نعرض لدلالة الكلمة في تداولاتها العلمية والإجرائية.

تعتمد أساسيات القيام بأي بحث علمي بالدرجة الأولى على المنهج المتبع، والذي يحدده الباحث ويختاره وفق ضوابط معينة بحيث يكون ملائما لمضمون دراسته، وتحديد أبعادها بشكل شامل بغية الوصول إلى نتائج منطقية ومحددة.

¹ - محمد محمد قاسم، المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص 33 وما بعدها

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج الوصفي، فهو يسمح لنا بوصف الظاهرة محل الدراسة كما اعتمدنا البحث الوثائقي في التعرف على الوضع الصحيح لفلسفة تصنيف العلوم في الحضارة العربية الإسلامية والمفاهيم الحديثة لتصنيف العلوم.

1.- الاطار المفاهيمي والنظري

1.1.- التصنيف في اللغة

التصنيف في اللغة هو: "تمييز الأشياء بعضها من بعض، وصنف الشيء: ميز بعضه من بعض، وتصنيف الشيء جعله أصنافاً".¹ و"صنف الأشياء: جعلها صنوفاً وميز بعضها من بعض، ومنه تصنيف الكتب، وشجر مصنف: مختلف الألوان والثمر".² وجاء في: "تكملة المعاجم العربية" الذي وضعه المستشرق الهولندي دوزي (1820-1883م) ما نصه: "صنف: رتب الكتاب حسب مواده وموضوعاته، ويقال الكتب المصنفة، وهي الكتب التي رتب بهذه الطريقة... وصنف: اختلق الكلام كذبا من غير أصل... والصنف (بفتح وكسر): أسرة، عشيرة، أمة... والصنف: الطائفة، أهل الحرفة...".³

2.- التصنيف في الاصطلاح

لا تكاد تختلف المفاهيم الاصطلاحية لمصطلح التصنيف في دلالتها العامة عن الدلالة اللغوية المشار إليها سابقاً، لأنه لا يخرج عن كونه يفيد ترتيب الأشياء أو العلوم في أقسام أو مجموعات بالنظر إلى العناصر المشتركة بينها، ولذلك يعد من أبرز الوسائل المنهجية المعتمدة في تنظيم الأشياء التي تربط بينها صفات وخصائص مشتركة، تشكل ما يمكن تسميته بالطائفة أو الصنف أو المجموعة.⁴ فهو إذن يطلق على كل عملية منهجية تسعى إلى تنظيم الأشياء، والأفكار، والعلوم في مجموعات وفق درجات تشابهاً وبحسب مبادئ وقواعد عامة، ومن هذا المعنى أخذ تصنيف الكتب أي تأليفها.

كما يطلق التصنيف أيضاً ويراد به ترتيب وسائل ومصادر المعرفة، وإخضاعها لنسق معين في التنظيم، بحيث يكون من اليسير استعادة المعلومات المطلوبة واسترجاعها في أي حقل من حقول المعرفة البشرية، وبطريقة سريعة وناجعة، ولذلك ينعت التصنيف بأنه: "مفتاح تخزين المعلومات في أي ميدان".⁵ ومن هذا المنطلق، يلاحظ أن هناك من يعرف العلم نفسه بأنه: "تنظيم المعارف وتصنيفها على أسس إيضاحية".⁶ ولقد حدد "برويك سايرز" Sayers W.C.B للتصنيف معنيين رئيسيين:

1 - المعنى المنطقي وينعت به العملية الذهنية التي يتم من خلالها إدراك التشابه أو الوحدة بين العناصر المرتبطة ببعضها ببعض.

2 - المعنى العلمي الواقعي الذي يفيد ترتيب الأشياء الفعلية الواقعية وهذا هو التصنيف العملي⁷ لأنه يمثل الترتيب المجرد للأشياء.

إن أهمية علم التصنيف، بغض النظر عن طرقه ومناهج أصحابه في تقسيم العلوم وترتيبها، لا تنحصر فقط في وضع الحدود الفاصلة بين العلوم والمعارف، التي تشكل البناء الهيكلي العام لأي نظام تصنيفي، بل إنها بالإضافة إلى ذلك، لا تظل حبيسة الجانب الوصفي لما هو كائن من علوم العصر فحسب، وإنما تمتد إلى بيان ما يراه المصنف من منطلقه الخاص، جديراً بالوصف والترتيب والخصر، مما يفيد أن علم التصنيف

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة صنف، دار المعارف، القاهرة، 2008، ج. 2511/4

² - الزمخشري، أساس البلاغة (صنف)، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، القاهرة، 1953، ص. 260

³ - تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، مراجعة جمال الحياط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1982، ج. 476/6

⁴ - ارنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ترجمة عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 277، يناير 2002، ص. 142

⁵ - المرجع السابق، ص. 143.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 42.

⁷ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968، ج. 44-43/1

لا يتحدد فقط في بعده الوصفي الصرف، وإنما يتدخل فيه المصنف الذي يخضع العلوم المصنفة انطلاقاً من موقفه العام، وانطلاقاً من تصوراته "الذاتية" أي من رؤيته؛ ليس لما هو كائن فحسب وإنما لما ينبغي أو يجب أن يكون في مضمار العلم. ولذلك يجب التأكيد على أن أي عمل تصنيفي أو إحصائي للعلوم، لا ينفك أبداً عن رؤية معيارية توجه عمل المصنف وتدفع صاحبه إلى إخضاع العلوم المصنفة لموقفه من المعرفة والوجود والتربية... وفي هذا دليل على أن كل محاولة تصنيفية رهينة بالإطار التاريخي والثقافي للمرحلة التي تظهر فيها، أو تتأطر بها، ذلك أن كل عمل تصنيفي لا ينفك عن أن يكون صادراً من موقف يعكس جانباً خاصاً من جوانب الموقف العام من علوم العصر نفسه.¹ معنى ذلك أن كل تصنيفات العلوم، سواء في مرحلة تاريخية معينة أو بالنظر إلى المراحل التاريخية المتعاقبة، ليست مجرد حصر منطقي أو إحصاء تقني لعلوم العصر فحسب، وإنما هي صورة من صور الحياة العقلية والفكرية والتربوية للمجتمع الذي تظهر فيه، ولذلك فتصنيف العلوم لا يمكنه أن يتم خارج الإطار التاريخي والثقافي العام لحركة المجتمع الذي يحتضنه. ولعله بسبب من هذا الارتباط، عمد ابن خلدون (ت. 808هـ) إلى الربط بين التاريخ الحضاري العام للمجتمع العربي وبين نشوء العلوم وتطورها، تبعاً لما عرفه المجتمع العربي في مساره التاريخي من تحولات عقلية وعلمية وفكرية وحضارية، بحيث إنه في مقدمته: "يعرض لتاريخ العلم في إطار التاريخ العام للمجتمع الإسلامي، ومن ثم فهو لم يفصل بين العلم وبيئته وفلسفته".²

يعد كتاب "مفاتيح العلوم" للخوارزمي (387هـ) بالإضافة إلى "رسالة الحدود" لجابر بن حيان من خير المؤلفات التي عنيت بإبراز هذه الجوانب في سياق العناية بتصنيف العلوم عن طريق التركيز على بيان دلالات المصطلحات الدائرة بين أهل هذا الاختصاص أو ذاك. وقد شكل هذا الاتجاه المنهجي في تصنيف العلوم نموذجاً متميزاً، لأن أصحابه عمدوا إلى بناء الهيكل التصنيفي الذي ارتضوه من زاوية اصطلاحية صرف، فاتجه عملهم إلى الجوانب اللغوية التي تحقق للعلم دقته ووضوحه وأهدافه الإيضاحية، ولقد انصبت جهودهم على العناية ببيان مفهومات المصطلحات المتداولة بين أهل العلم،³ أو بين أولئك الذين يتداولون نتائجه أو تحليلاته ومفاهيمه من العلماء الآخرين، أو الأدباء، وكل من له صلة بعمل من أعمال الإدارة والتسيير أو الفكر والنظر. وقد استقر في ذهن أصحاب هذا الاتجاه أن العناية بدلالة المصطلحات يجب أن تنصدر الاهتمام، لأنها هي السبيل إلى تقدم العلوم وتطورها، كما أنها هي التي تضمن للمشغلين بالعلوم تحقيق درجات عليا من التواصل والتفاهم والاقتصاد في اللغة، وتحول دون مظاهر اللبس والغموض وعدم التدقيق في لغة العلم⁴ التي من أبرز خصائصها الدقة والوضوح والوضوح ووحدة المعنى. ولقد تبناه أبو عبد الله الخوارزمي إلى ضرورة العناية بلغة العلم، وذلك ببيان دلالة الألفاظ والمصطلحات العلمية المتداولة في كل علم من علوم عصره. ولهذا يمكن اعتبار كتابه معجماً اصطلاحياً جمع فيه مصطلحات العلوم والفنون والآداب التي كانت راجعة في زمانه، ولقد عبر عن كل ذلك هو نفسه في مقدمة كتابه فقال: "دعني نفسي إلى تصنيف كتاب... يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضيع والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة حتى إن اللغوي المبرز في الأدب، إذا تأمل كتاباً من الكتب التي صنف في أبواب العلوم والحكمة، ولم يكن شداً صدر من تلك الصناعة، لم يفهم شيئاً منه وكان كالأمي الأغتم عند نظره فيه".⁵

¹ - زكي نجيب محمود، جابر بن حيان، مكتبة مصر، القاهرة، 1961، ص. ص. 87-88.

² - أحمد فؤاد باشا، ابستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي، مجلة منبر الحوار، ع. 16، السنة 4، شتاء 1989-1990م/1410هـ، ص 15.

³ - محمد حسن عبد العزيز، المصطلح العلمي عند العرب، تاريخه ومصادره ونظريته، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000، ص. 176.

⁴ - أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص. 15.

⁵ - الخوارزمي، مفاتيح العلوم، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط. 1981، 2، ص. 2.

بعيدا عن الماضي في تسجيل بعض الملاحظات على تعريف أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زادة)، الذي يعرف عند المهتمين بأنه أول من عرف هذا العلم وجعله علما مستقلا قائما بموضوعه ومنهجه وغايته¹ لابد أن نشير إلى أن في مثل هذا الموقف ضربا من المغالطة التي يجب بيان حقيقتها: صحيح أن طاش كبرى زادة هو الذي أفرد للتصنيف موقعا مستقلا في سلسلة العلوم القابلة للتصنيف، ولكن ينبغي التنبيه إلى أنه اعتمد بشكل ملحوظ في مؤلفه الضخم "مفتاح السعادة..." على محاولة تصنيفية متميزة، وهي التي قام بها أبو عبد الله محمد بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني (ت 749هـ) في كتابه الموسوم بـ: "إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد".²

إذا رجعنا إلى مسألة الأساس العلمي في تقسيم العلوم وترتيبها، فالملاحظ أن ابن الأكفاني التفت إلى أنواع التقسيمات الممكنة التي يمكن أن تخضع لها العلوم، بل إنه يصرح وبشكل واضح بأصول فكرة التدرج التي بنى عليها طاش كبرى زادة تصنيفه المعروف، يقول ابن الأكفاني: "والقسمة المستعملة في العلوم أصناف، فمنها: قسمة العام إلى الخاص، وقسمة الكل إلى الأجزاء، وقسمة الكل إلى الجزئيات، كقسمة الجنس إلى الأنواع، وقسمة النوع إلى الأشخاص، وهذه قسمة ذاتي إلى ذاتي، وقد يقسم الكل إلى الذاتي والعرضي، وقد يقسم الذاتي إلى العرضي، كالإنسان إلى أبيض وأسود، والعرضي إلى الذاتي، كالأبيض إلى إنسان وغيره، والعرضي إلى العرضي، كالأبيض إلى الطويل والقصير، والتقسيم الخاصي هو المردد بين النفي والإثبات".³

لقد ذهب ابن الأكفاني إلى أبعد من هذا حين تنبه إلى أن عملية تصنيف العلوم في حد ذاتها، وسيلة من أهم الوسائل المعتمدة في التعليم والتعلم، أي أنها من الطرق التي يستند إليها في تحقيق الغاية القصوى من التربية، إلى جانب الطرق الأخرى التي حصرها في "التركيب والتحليل والتحديد والبرهان".

2.- مقاصد تصنيف العلوم

تعدد التسميات الدالة على موضوع هذا العلم عند العرب، فهناك من يسميه "علم أقسام العلوم"،⁴ ومن يسميه علم أجناس العلوم،⁵ وهناك من يصفه بعلم التقاسيم،⁶ وهناك من يكتفي بالحديث عن طبقات العلوم، أو أنواع العلوم،⁷ إلى غير ذلك من التسميات و الصيغ اللغوية المركبة التي دأب العرب على استعمالها ويمكن أن نرصد أبرز المؤلفات بحسب تسلسلها التاريخي:⁸

الرقم	اسم المؤلف	عنوان المؤلف	سنة الوفاة
-------	------------	--------------	------------

¹ - جلال موسى، تصنيف العلوم عند العلماء المسلمين، مجلة المسلم المعاصر، السنة 11، العدد 41، ربيع الأول 1405هـ/ديسمبر 1985، ص. ص. 24-26.

² - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تقديم ومراجعة محمد عوامة، اعتناء وضبط حسين عجمي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط. 1، 1994، ص. 44.

³ - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1965، ج 1، ص. 35.

⁴ - ابنسينا، أبوعلنا الحسين بن عبد الله، رسالة في أقسام العلوم العقلية، من كتاب بحث رسائل في الحكمة والطبيعية، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1876، ص. 266.

⁵ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجلان الوفاء، ج. 21/1، مراجعة خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي سي آي سي، لندن (المملكة المتحدة)، 2017، ج. 1/408، 429.

⁶ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، ج. 7/1، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الرياض، 2004.

⁷ - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص. 21.

⁸ - عبد المجيد النجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص. ص. 37-38.

1	جابر بن حيان	رسالة الحدود	منتصف القرن الثاني الهجري
2	الكندي	رسائل الكندي	ت. 260هـ
3	الفارابي	- إحصاء العلوم - التنبيه على سبيل السعادة	ت. 339هـ
4	إخوان الصفا	رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا	منتصف القرن 4هـ
5	ابن النديم	الفهرست	ألف سنة 377هـ
6	الخوارزمي	مفاتيح العلوم	ت. 387هـ
7	ابن سينا	- رسالة في أقسام العلوم العقلية - كتاب الشفاء	ت. 428هـ
8	ابن حزم	رسالة مراتب العلوم	ت. 456هـ
9	الأبيوردي (أبو المظفر محمد بن أحمد)	طبقات العلوم	ت. 507هـ
10	الزمخشري	الأمل من كل فن	ت. 538هـ
11	الفخر الرازي	حدائق الأنوار وحقائق الأسرار	ت. 606هـ
12	ابن الأكتفاني (محمد بن ساعد الأنصاري)	إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد	ت. 749هـ
13	ابن خلدون	المقدمة	ت. 808هـ
14	البسطامي	كتاب في موسوعات العلوم	القرن 9هـ
15	مولي لطف الله	المطالب الإلهية	ت. 900هـ
16	جلال الدين الدواني	أتمودج العلوم	ت. 920هـ
17	لطاش كبرى زادة	مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم	ت. 968هـ
18	حافظ الدين العجمي	فهرست العلوم	ت. 1055هـ
19	حاجي خليفة	كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	ت. 1068هـ
20	أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي	القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم	ت. 1112هـ
21	التهانوي الفاروقي	كشاف اصطلاحات الفنون	ت. 1158هـ
22	صديق بن حسن القنوجي	أبجد العلوم	ت. 1307هـ

الجدول رقم 1 :- قائمة بالذين عملوا في تصنيف العلوم بالتسلسل التاريخي.

يتبين، من خلال أغلب مقدمات هذه المؤلفات، أنها لا تكاد تختلف حول المقاصد الكبرى من التأليف في هذا الموضوع، وعلى الرغم من تباین هذه المؤلفات في الموضوعات والمناهج ومجالات العناية والاهتمام، بالإضافة إلى الاختلاف في المنطلقات والتوجهات العامة، فإنها تكاد تتفق على أن إحصاء العلوم وتصنيفها، فضلاً عن التمييز بينها من حيث الموقع والأهمية ضمن سلسلة العلوم الرئيسية المختلفة التي تشكل البناء الهيكلي لهذا التصنيف أو ذاك، تظل الأهداف الرئيسة التي سعى إليها أغلب المصنفين في القسّم والحديث. ولعل الفارابي (339هـ) يعد من أوائل العلماء الذين كشفوا عن طبيعة التأليف وأهدافه في هذا المجال، يقول في مقدمة "إحصاء العلوم" مبيناً غايته من التأليف: "قصداً في

هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علما علما، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها وأجزاء كل ما له منها أجزاء، وجمل ما في كل واحد من أجزائه".¹ لقد عني الفارابي في مقدمة كتابه "الإحصاء" ببيان مزاياه ومنافعه فحصرها في بعض الغايات التعليمية المرتبطة بتجزئة العلوم، وإدراج بعضها في الآخر، بهدف تيسير تعلمها وتسهيل تحصيلها، بالإضافة إلى تكوين صورة عامة عن مضمون العلوم ومجالات عملها، وطرق اشتغالها وتباين مناهجها، وكل ذلك بقصد المقارنة بينها تحقيقاً لأهدافها وأوثق، وأيهما أوهن وأوهى، يقول: "وينتفع بها في هذا الكتاب، لأن الإنسان إذا أراد أن يتعلم علماً من العلوم وينظر فيه، علم على ماذا يقدم وفي ماذا ينظر، وأي شيء سيفيد بنظره، وما غناء ذلك وأي فضيلة تنال به، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة. وبالنظر في مقدمات كتب إحصاء العلوم والفنون في الحضارة العربية الإسلامية، يتبين أن أغلبها يربط بين الإحصاء والتصنيف وبين طرق تحصيل العلوم من زوايا تربوية وتعليمية،² مما يدل على أن العرب قد أدركوا منذ القدم أهمية هذا النوع من المؤلفات ودورها في رصد حركة العلوم وطرق تحصيلها في أقرب وقت وبجهد أقل.³

إن تأسيس علم خاص بالتصنيف يقتضي وجود مصنفات ومؤلفات كثيرة ومختلفة القضايا والموضوعات والاتجاهات، لأنه رهين بوجود تراكمات علمية ومعرفية وتجريبية تستغرق كافة مجالات النشاط الفكري والفلسفي والأدبي والفني والعلمي. ومن هنا يعد علم التصنيف نتيجة طبيعية لتواجد أنساق ونظريات علمية في مختلف مجالات النشاط العقلي بصفة عامة، مما يستدعي إحصاءها وحصرها أو لا، ثم التعريف بموضوعاتها ومناهجها وغاياتها، وكذا بيان مواقعها من حيث الأهمية والأولوية في سلسلة التصنيف، لأن العلوم، مع اشتراكها في الشرف تتفاوت أهمية وأفضلية بحسب موضوعاتها أو الغاية منها أو بحسب درجة الحاجة إليها، وقد تتفاوت بالنظر إلى مدى وثاقه الحجج المستعملة فيها⁴... وهكذا تتعدد أوجه التفاوت بين أصناف العلوم لاعتبارات مختلفة ليس هنا مقام التفصيل فيها. إن صفة العلم لا تتحقق في أي مجال مجال من مجالات البحث والمعرفة إلا إذا بلغ ذلك المجال درجة كبيرة من الضبط والتقنين تسمح بوضع قوانينه ومقرراته موضع التطبيق العملي أو النظر العقلي، بمعنى أن أي فرع من فروع المعرفة النظرية أو العملية، لا يمكنه أن يدرج في بناء تصنيفي إلا إذا تم اكتشاف قوانينه وضبط جهازه الاصطلاحي الذي ييسر سبل الدقة في الوصف والتحليل.

من المعلوم أنه لا يتوصل إلى بناء القانون العلمي إلا بعد أن يمر العلم بسلسلة من الإنجازات والتجارب والتراكمات التي تسمح باستخلاص القوانين المتحكممة في نتائج هذا العلم أو ذاك، على أنه لا ينبغي أن يفهم من اصطلاح القانون، أن العلم يعترف بالقانون المطلق، لأن الحقائق العلمية، إنما ترتبط بظروفها التاريخية من حيث هي تعكس مستوى البحث والنظر في هذه المرحلة أو تلك، ولذلك فهي: "دائمة التطور والتغيير بحيث لا يمكن القول بوجود حقيقة نهائية غير قابلة للدحض أو التحوير أو الزيادة. فمحتوى أي علم من العلوم غير ثابت، لأن اليقين في العلم⁵ يتخذ مفهوماً خاصاً، فهو يبنى على النسبية والقابلية للتصويب والتعديل، بل في أحيان كثيرة يخضع للانقلاب الجذري، أو ما يسمى بالثورات العلمية التي من شأنها أن تغير كلية من بعض الحقائق والمعطيات التي كان ينظر إليها في السابق على أنها حقائق علمية غير قابلة للطعن أو الدحض.⁶

¹ - الفارابي، أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، المصدر السابق، ص. 53

² - أبو علي اليوسفي، الحسن بن مسعود اليوسفي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، تحقيق الأستاذ حميد الحماني، مطبعة

شالة، الرباط، ط. 1، 1998، ص. 278

³ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، المصدر السابق، ج. 1/43-44

⁴ - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المصدر السابق، ج. 1/18-23

⁵ - منى طريف الخولي، العلم و الاغتراب و الحرية : مقال في فلسفة العلم من الحتمية الى الاحتمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص.

415

⁶ - زكي نجيب محمود، أسس التفكير العلمي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1977، 67 ص.

لقد شهد المجتمع العربي بعد انقضاء العهد النبوي تطورات هائلة مست الحياة العربية في جميع نواحيها الاجتماعية والسياسية والفكرية والعلمية والتنظيمية، وقد استدعى ذلك التطور ظهور علوم جديدة مواكبة لمختلف المستجدات التي عرفها المجتمع الإسلامي، وهكذا ظهرت علوم الفقه والتفسير واللغة والبيان والحديث، والنحو والكلام والفلسفة والأصول، وحققت في مدة وجيزة من التطور والتبلور ما جعلها علومًا وفنونًا وصناعات لها مبادئها وقواعدها ومنهجها المستقلة،¹ ولها أعلامها الذين مثلوا مختلف اتجاهاتها وتياراتها مما خلفوه من أعمال علمية رائدة. ولقد أفضى النظر في القرآن الكريم إلى وضع مجموعة من الضوابط المتعلقة بشروط التفسير ولوازمه، فحدد العلماء مجموعة من الشروط والمعارف الضرورية التي ينبغي التسليح بها قبل الدخول في مواجهة القرآن والنظر فيه.² وفي سياق التعامل مع القرآن الكريم، تعددت أنواع التفسير واختلفت مصادر أصحابها وتنوعت طرقهم، فظهر ما يعرف بتفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة أو بالرأي والاجتهاد، وهناك من اعتمد القراءات القرآنية، ومن اعتمد اللغة وإعراب القرآن وبيان معانيه، وبذلك ظهرت مدونات ورسائل كثيرة عكست ذلك التنوع والغنى والاختلاف في أوجه النظر إلى النص القرآني المعجز... أما في مجال الحديث النبوي، لم يقف الأمر عند مجرد نقله وروايته، وإنما اتسع مجاله ليشمل علم الرجال والرواة، فوضعت بفضل مجهودات أهله مقاييس علمية، وتعددت طرق توثيق النص الحديثي، ولكنها لم تنفك أبداً عن الارتباط بطرق تحمل الحديث وبأوجه روايته وضبطه متنا وسندا. وكان من نتائج ذلك ظهور علوم كثيرة متنوعة تتصل بالحديث من حيث متنه وسنده ورجاله ومصطلحه، فأصبح مجال الحديث النبوي علماً قائماً بذاته، وتم تصنيف الرواة إلى طبقات ومراتب بالنظر إلى درجاتهم في العدالة والضبط، كما تم التمييز في درجات الحديث من حيث الصحة والضعف والحسن، والشذوذ والعلّة... إلى غير ذلك من الاصطلاحات العلمية الدقيقة التي تحفل بها المؤلفات الحديثية المعروفة ككتب الصحاح، وكتب السنن والمسند والمستدركات...³ وبصفة عامة فقد أسفرت جهود علماء الحديث في توثيق النص الحديثي عن عدة علوم ومباحث، بفضل استقلال البحث وتعمقه في مختلف عناصر المتن، وضوابط السند وما تفرع عنهما من علوم فرعية أخرى تستمد أصولها المعرفية من طبيعة علم الحديث الذي عرف عندهم بأنه: "علم رواية ودراية". وعن هذين الأصلين تفرعت علوم كثيرة كعلم الجرح والتعديل، وعلم رجال الحديث، وعلم مختلف الحديث وعلم علل الحديث، وعلم غريب الحديث، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه إلى غير ذلك من العلوم الدقيقة التي تحفل بها المكتبة الحديثية الغنية بالمؤلفات والرسائل المتنوعة:⁴ فعلى سبيل المثال كان الاهتمام بسند الحديث دافعا إلى العناية بما يعرف في الحضارة الإسلامية "بعلم الرجال" الذي تأسس، وتأصل، وتبلور في بيئة المحدثين، حتى صار علماً قائماً بذاته، له أعلامه ومصنفاته التي تعنى بالترجمة للشيوخ والتعريف بالعلماء الذين يتم النقل والرواية عنهم بالطرق المعروفة المضبوطة كالسماع، والقراءة والإجازة، والمناولة، والكتابة، والإخبار والحديث المباشر... ويمكن القول إن تلك المؤلفات التي تعرف بالشيوخ وبسيرهم تشكل حلقات أساسية من حلقات تأسيس العلوم العربية وتطورها، ولذلك فهي جزء من تاريخ العلوم نفسها، ولعله من أجل ذلك ذهب ابن خلدون إلى أنه "كان للسند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل...".⁵ ومن هنا فكتب التراجم والطبقات والأعلام والفنون تعد من أوائل المصنفات التي استقلت بموضوعها ومنهجها وأهدافها ضمن الإطار العام للثقافة العربية، فهي تجسد جوانب مهمة من تطور الفكر والمعرفة، كما تؤرخ لتطور البحث المعرفي من خلال الترجمة لرجاله والتعريف بمنجزاتهم في حقول تخصصاتهم. ذهب ابن جرير الطبري (ت 310هـ) إلى أن القرآن الكريم يشتمل على ثلاثة علوم هي: التوحيد

¹ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق عبدالله محمد الدريوش، دار يعرب، دمشق، ط. 1، 2004، ج. 1028/3

² - ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، حققه محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1988

³ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 1033/3

⁴ - صبحي إبراهيم الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 15، 1984

⁵ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 101/3

والأخبار والديانات. وذهب علي بن عيسى إلى أن القرآن يشتمل على ثلاثين علما. وقال السيوطي إن القرآن يشتمل على كل شيء، لأنه ما من مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها.¹

وفي سياق الحديث عن البدايات العربية الأولى لتصنيف العلوم يروى عن الإمام علي (ت 40هـ) (كرم الله وجهه) أنه قال: "العلوم خمسة: الفقه للأديان والطب للأبدان، والهندسة للبنيان، والنحو للسان والنجوم للزمان".²

لقد ازدهرت العلوم في الحضارة العباسية ازدهارا ملحوظا بفضل اكتشاف المنهج التجريبي الذي أصله العلماء المسلمون، ووضعوا قواعده وشروطه التي مكنتهم من التعمق والتدقيق في النتائج، بعيدا عن المناهج العقلية الاستنباطية المعتمدة عند اليونان وغيرهم، إذ اعتمد العرب المنهج الاستقرائي والتجريبي، حتى ليتمكن القول، إن هذا المنهج مدين للعرب في ظهوره وتطوره، وتطبيقاته العملية، مما جعل ابن خلدون منذ القديم يتحدث عن "العقل التجريبي" ويجعله من خصائص الفكر العلمي في الحضارة العربية،³ وهذه الحقيقة نفسها هي التي دفعت "برينولت" في كتابه الشهير: "تكوين الإنسانية" إلى القول بأن: "العلم هو أعظم ما قدمته الحضارة العربية إلى العالم الحديث عامة، وأن الادعاء بأن أوروبا هي التي اكتشفت المنهج التجريبي ادعاء باطل وخال من الصحة جملة وتفصيلا، لأن الفكر الإسلامي هو الذي قال: "انظر وفكر، واعمل، وجرب حتى تصل إلى اليقين العلمي".⁴

ومعلوم أن الوصول إلى "اليقين العلمي" رهين باكتشاف قوانين الظواهر المدروسة، ولقد حقق علماء العرب في مجالات علمية متعددة تلك القوانين بدرجات عالية من الدقة والمنهجية كما تدل على ذلك مؤلفاتهم وآثارهم في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والتجريبية. ذلك أن العلماء المسلمين القدماء عرفوا مفهوم القانون وتطبيقاته المختلفة، وليس أدل على ذلك من شيوع هذا المصطلح في مؤلفاتهم العلمية والنظرية، حتى إن ابن سينا (370هـ - 428هـ) يجعله عنوانا لأشهر كتبه في الطب، وقد تنبه ابن الأکفاني إلى ذلك، فنوه بالكتاب وبدلالة عنوانه، كما بين مفهوم القانون فقال: "وأما 'القانون' للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا فهو الذي أخرج الطب من التلقين إلى التهذيب والترتيب، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا. وبصفة عامة فقد فهم العلماء العرب أهمية اكتشاف القوانين التي تتحكم في الظواهر والأشياء، لأنهم أدركوا أن تطور العلوم وتقدمها يرتبط عضويا بالعمل على ضبط قوانين الأشياء المدروسة، ولذلك فقد تم تداول هذا المصطلح بدلالته العلمية والإجرائية في بحوثهم ودراساتهم التي أجروها في الطب والصيدلة والهندسة والفلك والكيمياء والنبات والحيوان والصوت والضوء... بل إن مفهوم القانون لم يكن عندهم مقصورا على التداول في مجال العلوم الحقة، وإنما نجدهم يستخدمونه في مجالات علوم اللغة والفقه والأصول وغيرها.

3. - تاريخ تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين

ينسب التصنيف الأول إلى اليونانيين، وخاصة إلى أفلاطون و أرسطو، وتصنيف هذا الأخير معروف، فهو قد صنفها إلى ثلاث مجموعات: الفلسفة النظرية، والفلسفة العملية، والعلوم الآلية. ثم بعد ازدهار حركة الترجمة، قام العلماء المسلمون، كالكندي و الفارابي و ابن سينا و الغزالي وغيرهم، بإجراء أبحاث في تصنيف العلوم. وقد عني بعض العلماء بجميع العلوم، وبعض آخر قصر اهتمامهم على العلوم الشرعية بسبب التزاماتهم الدينية، فنظروا إلى سائر العلوم من الزاوية الدينية، وثمة آخرون استلهموا القرآن والعقائد الدينية وزوجوا ذلك بما وصلنا من

¹ - جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984،

ج. 33/4

² - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، المصدر السابق، ج. 303/1

³ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 1009/3

⁴ - الدفاع، علي بن عبد الله، العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 2، 1983، ص. 15

اليونان، كما فعل الفارابي¹ ابن خلدون، في مقدمته للتاريخ العام يورد تقريراً جامعاً عن تصنيف العلوم الإسلامية بعد مرحلة البلوغ . كما ان مؤلفو الموسوعات اولوا اهتمامهم لمسألة تصنيف العلوم . من هؤلاء ابن النديم و شمس الدين الآملي و التهانوي و ابن الاكفاني و ابن حزم الاندلسي . وضع بعضهم قواعد للتصنيف، كقاعدة العموم والخصوص، وقاعدة التوقف والاناطة، وقاعدة الاشرفية² وفي الغرب قام بعضهم، مثل فرانسيس بيكن، بتصنيف العلوم بدءاً بعقل الانسان، فصنفها - متبعاً أرسطو - الى ثلاث مجموعات فلسفية هي: العلم الالهي، والعلم الطبيعي، وعلم البشر، ويصورها كالشجرة التي تتدلي اغصانها لتمثل سائر العلوم التي تتفرع منها.³ اوغست كنت صنف العلوم بحسب كليتها المتنازلة والمفصلة وتعقيدها المتصاعدة، اي كلما كانت الاحداث ابسط كانت اشمل كلية، اذ ان هناك نسبة مباشرة بين البساطة والكلية و أمير قسم العلوم الى قسمين اثنين: العلوم العالمية والعلوم العقلية، وقسم كلا منهما الى اربع مجموعات. هربت سبنسر، الذي انتقد التصنيفات السابقة، يقسمها الى ثلاثة اقسام في الوهلة الاولى، تحت اسماء: العلوم المجردة، والعلوم النصف مجردة، والعلوم العينية⁴ المصنفون المسلمون اكثر ما يتبعون اسلوب ارسطو،⁵ و هو التقسيم الثلاثي في الغالب، وان لم يخل من التقسيم الثنائي⁶ كان الفارابي اول من صنف العلوم كما هي اليوم، ووضع الحدود لكل صنف، علي الرغم من ان الكندي قد شرع بذلك في القرن الثاني في تنظيم دائرة المعارف البريطانية (ط. 15)، والتي تعتبر في عصرنا دائرة للمعارف فريدة ونموذجية، اتبع اسلوب سلسلة المراتب الي حذما . وكما يقول اوغست كنت، فقد لوحظت الكلية المتنازلة والتعقيد المتصاعد. يبدأ هذا التقسيم بالمادة والطاقة، ومن ثم الارض، والحياة عليها، وحياة الانسان، والجمتمع الانساني، والفن، والتقنية، والدين، والتاريخ، ويخصص الفصل الاخير لفروع العلم في الفكر والعقل الانساني، وفي تصنيف العلم البشري، في الفصل العاشر الذي يقسم الى خمسة اقسام، يبدأ بالمنطق، ثم الرياضيات، ثم العلم، ثم التاريخ والعلوم الانسانية، واخيرا الفلسفة.⁷

لا تعد نظم التصنيف الحديثة ابتكاراً من عدم وإنما هي ذات جذور استمدت من نظم تصنيف سابقة عليها، فموضوع التصنيف سلسلة متصلة الحلقات، والتصنيف ليس موضوعاً حديثاً وإنما هو موضوع قديم قدم المعرفة نفسها؛ فتطور المعرفة بما يضاف إليها من معارف يتوصل إليها الإنسان تظهر الحاجة إلى تنظيمها وتقسيمها؛ ولذا اعتمد الفكر الإنساني إلى تقسيم المعرفة إلى أبواب وفصول وأنواع وأجناس، وبيان العلاقة التي تربط بين العلوم المختلفة وطرق ترتيبها، وقد بدأ التصنيف على أيدي الفلاسفة والعلماء لوضع تقاسيم منظمة للمعرفة. ونجد لكل عصر من العصور الإنسانية أسلوبه ومنطقه الخاص في تقسيم المعرفة والعلوم؛ والتصنيف يعطي صورة صادقة عن الحياة العقلية لدى الأمم، كما يكشف عن نظامها التربوي والحضاري، إضافة إلى أن التصنيف يكشف الروابط والتشابه الجزئي بين المجالات المختلفة للمعرفة. والحضارة العربية الإسلامية حضارة أصيلة لها إسهامات فعلية وجادة في مختلف العلوم والمعارف، وأوجدت نظم تصنيف لتنظيم العلوم انطلقت من منطق وفلسفة ومبادئ وضعها العرب والمسلمون، وكان لها التأثير المباشر وغير المباشر على فكر التصنيف الحديث، فقد حدد العرب والمسلمون طرق التصنيف التي تتبعها نظم التصنيف الحديثة، بل إنه محدد والعلاقات بين العلوم وتداخلها، وأسس ترتيبها، وبحسب للعرب والمسلمين أنهم أول من وضعوا مصنفات مستقلة في علم التصنيف، بل يرجع للعرب والمسلمين أنهم

¹ - ابن حزم الاندلسي، علي بن احمد، مراتب العلوم، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007، ص. 17

² - المرجع نفسه، ص.ص. 20-21

³ - المرجع نفسه، ص.ص. 23-24

⁴ - المرجع نفسه، ص. 25

⁵ - الطاهري العراقي، احمد، تقسيم العلوم عند الغزالي، المعارف، ع. 3، 1942، ص.ص. 81-89

⁶ - ابن حزم الاندلسي، علي بن احمد، المرجع السابق، ص. 35

⁷ -The New Encyclopedia Britanica .Propededia Outline of KnowledgeandGuideto Britanica, Chicago, Encyclopediabritanica 1998.

أول من تنبه إلى أن موضوع التصنيف علم، ووضعوا له تعريفاً، وحددوا مكانه ضمن خريطة المعرفة الإنسانية، وقد سبقوا في ذلك الغرب الذي تنبه لعلم التصنيف في القرن التاسع عشر مع ظهور أول نظام تصنيف مكتبي على يد ميلفيل ديوي.

إن العلم هو واحدة من المؤسسات في الحضارة العربية الإسلامية، ولا يشجع عليه محبو العلم ورعاه فقط، بل إن الخلفاء والحكام والولاة عملوا على بعثه ونموه. ويجب ذكر خالد الأمير الحكيم، والمنصور مؤسس بغداد، والمأمون الذي أرسل المبعوثين لترجمة المخطوطات، والناصر وابنه الحكم في الأندلس. وبالفعل في الوقت الذي نمت فيه جهود الترجمة، قامت مدرسة "أحمد بن حنبل" القائمة على علوم القرآن والسنة، وهذا الموقف جعل إرنست رينان يقول بأن العلم في بلاد الإسلام قد انتشر رغماً عنه. وهذا خطأ حتى لو نظرنا بمنظار المدارس المتشددة والمتعصبة، فهذه ليست كل الإسلام. ومهما يكن من أمر فقد انتصر حب العلم. والأمر على صعيد البحث وعلى صعيد التعليم ولّد الحاجة إلى جرد المعرفة، وربما كان هذا البعض قد ظن أن العلم قد اكتمل ولم يبق إلا تمثله، ولكن هذا التجميع للمعارف المكتسبة شكل تمهيداً ممتازاً للبحث التاريخي والتقدم، فقد فتحت الحاجة إلى الإحصاء المجال أمام تصنيف العلوم، ولا شك أن هذه التصنيفات لم تكن بتجديداً، ولكن الأقدمين قسموا العلوم بحسب مناهجها وصفاتها الأساسية وبحسب فهم موضوعاتها، وعند العرب المسلمين يبدو التصنيف ذا قيمة جديدة مهمة.

4.- مبادئ عامة في علم التصنيف

1.4.- القسمة الثنائية

لعل من أبرز مبادئ التقسيم الأولى التي أرساها علماء التصنيف العرب، تلك القسمة الثنائية المشهورة التي تفصل بين العلوم العقلية والعلوم النقلية،¹ أو بين العلوم الشرعية والعلوم الحكيمة (نسبة إلى الحكمة أي الفلسفة). ولقد تعددت المصطلحات الدالة على هذه القسمة لتشمل على سبيل المثال: العلوم الشرعية في مقابل العلوم غير الشرعية عند الإمام الغزالي² أو علم الدين وعلم الدنيا عند جابر بن حيان،³ أو العلوم الحكيمة الفلسفية والعلوم النقلية الوضعية عند ابن خلدون⁴ وحاجي خليفة⁵ الذي استلهم كثيراً من تقسيمات ابن خلدون ومصطلحاته. وقد يقال علوم الشريعة في مقابل علوم العجم.⁶

وبالنظر في إحصاء العلوم، يتبين خلوها من ذلك التصنيف الذي يجعل العلوم في قسمين منفصلين: قسم شرعي وقسم حكومي فلسفي. ونجد هذا المنطلق نفسه عند ابن سينا، الذي يقسم علوم الحكمة قسمين كبيرين:

الأول: خصصه لما يسميه بـ "العلوم النظرية المجردة" وتتضمن عنده ثلاثة أقسام:

. العلم الأسفل، ويسميه "العلم الطبيعي".

. العلم الأوسط، ويسميه "العلم الرياضي".

. العلم الأعلى، ويسميه "العلم الإلهي".

الثاني: ويسميه "العلوم العملية" وجعلها في ثلاثة أقسام:

. علم الأخلاق.

¹ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص. 137.

² - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، المصدر السابق، ج. 1، ص. 30-31.

³ - الأعمش عبد الأمير، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص. 167.

⁴ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 1025/3-1026.

⁵ - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المصدر السابق، ج. 49/1.

⁶ - الخوارزمي، مفاتيح العلوم، المصدر السابق، ص. 4.

. علم تدبير المنزل.

. علم السياسة المدنية.

وإلى جانب ما سبق، فقد شغل علماء التصنيف وغيرهم من العلماء الذين خاضوا في ترتيب العلوم، بالحديث عن مناهج العلوم المختلفة، وطرق تحصيلها سواء منها العلوم العملية أو النظرية، فبينوا أصول كل علم وفروعه، وشغلوا ببيان مقدماته وأوليائه ومبادئه الأساسية، وعلى الرغم من الاتفاق العام حول القسمة الثنائية كما تجسد ذلك أغلب المحاولات التصنيفية العربية، وبغض النظر عن تعدد التسميات أو العبارات الاصطلاحية الدالة عليها، فقد اختلف أيضا وبشكل كبير في تقرير الأسبقية والتفاضل بين العلوم التي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، فذهب أصحاب الاتجاه الفلسفي إلى أنها العلوم الفلسفية بأقسامها وفروعها، ولذلك جعلوها على رأس العلوم كلها ؛ وجعلوا البدء بها في تحصيل المعرفة أيسر وأسهل على المتعلم. ومن هذه الزاوية ذهب إخوان الصفا . على سبيل المثال . إلى تقسيم مجموع رسائلهم إلى اثنتين وخمسين رسالة، بالإضافة إلى الرسالة الجامعة التي جعلوها خاتمة لكل رسائلهم. وجعلوا كل ذلك في أربعة أقسام:

- ✓ القسم الرياضي الفلسفي¹ وجعلوه في 14 رسالة (العدد، الهندسة، علم النجوم، الجغرافيا، الموسيقى، الصنائع العملية إلخ...).
 - ✓ القسم الثاني: القسم الجسماني الطبيعي² وجعلوه في 17 رسالة منها (الهيول، والصورة، والحركة، والزمان، والمكان، السماء والعالم وإصلاح النفس، الكون والفساد، الآثار العلوية، ماهية المعادن، أجناس النبات ...
 - ✓ القسم النفساني والعقلي: وجعلوه في 10 رسائل³ في مبادئ الموجودات العقلية والروحانية، في العقل والمعقول، في الأدوار والأكوار، في ماهية العشق، في البعث والقيامة، في كمية أجناس الحركات، في العلل والمعلولات، في الحدود والرسوم...
 - ✓ القسم الناموسي الإلهي الشرعي⁴: وجعلوه في 11 رسالة منها: في الآراء والديانات، في ماهية الطريق إلى الله... في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين، في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة، إلخ...
- وقد جعل إخوان الصفا علم "العدد" من الرياضيات على رأس كل العلوم وفي مقدمة كل الرسائل، إذ جعلوه أصل العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف. ومن ثم فهو المدخل الأول الرئيس لكل العلوم، لأنه مركز. في نظرهم. في كل نفس بالقوة، ومنه يؤخذ المثال على كل معلوم، يقول إخوان الصفا: "الفلسفة أولها محبة العلوم، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم. والعلوم الفلسفية أربعة أنواع... فأول ما يتبدأ بالنظر فيه في هذه العلوم الفلسفية الرياضيات، وأول الرياضيات معرفة خواص العدد، لأنه أقرب العلوم تناولا، ثم الهندسة، ثم التأليف، ثم التنجيم، ثم المنطقيات، ثم الطبيعيات..."⁵ وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول الإخوان: "اعلم.. أنه لما كان من مذاهب إخواننا الكرام النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم... احتجنا أن نقدم هذه الرسالة (في العدد) قبل رسائلنا كلها ونذكر فيها طرفا من علم العدد وخواصه التي تسمى "الأرثماطيق" شبه المدخل والمقدمات، لكي يسهل الطريق على المتعلمين إلى طلب الحكمة التي تسمى الفلسفة، ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر في العلوم الرياضية."⁶
- ويبدو أن مثل هذا الموقف الذي سطره إخوان الصفا؛ هو الموقف الذي كان عاما وسائدا لدى فلاسفة الإسلام، الذين تقيّلوا في كثير من تنظيراتهم الفلسفية ما سبق أن قرره أرسطو بصفة خاصة، ذلك أن الفارابي، وهو المعلم الثاني كما يقولون يذهب إلى نفس ما ذهب إليه إخوان

¹ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/1، المصدر السابق، ص. 21.

² - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/2، المصدر نفسه، ص. 5.

³ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/3، المصدر نفسه، ص. 178.

⁴ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/4، المصدر نفسه، ص. 5.

⁵ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/1، المصدر نفسه، ص. 49.

⁶ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمالان الوفاء، ج. 21/1، المصدر نفسه، ص. 48.

الصفاء، بل لعله كان أكثر انشغالا منهم بهذه القضية، وليس أدل على ذلك من أنه خصص لها مجموعة مهمة من مؤلفاته، كالمدينة الفاضلة، وكتاب "تحصيل السعادة"، وكتاب "التنبيه على سبيل السعادة"، وهي كلها تحاول تقديم أجوبة فلسفية عن السبيل الذي من شأنه أن يوصل الإنسان إلى السعادة الدنيوية والأخروية.¹

وفي الجانب المقابل للاتجاه الفلسفي، نجد أصحاب الاتجاهات الدينية على اختلافهم وتنوع منطلقاتهم الفكرية: فقد ذهب علماء الفقه والتفسير والأصول والتصوف والحديث.. إلى أن الطريق إلى تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة هو في الانطلاق من علوم الدين أي من العلوم الشرعية المعروفة،² ولكن أصحاب هذا الاتجاه يختلفون اختلافات كبيرة حول أسبقية بعض هذه العلوم على الأخرى، إذ أن منهم من يعطي الأفضلية للفقه، ومنهم من يعطي الصدارة لعلم الحديث، وهناك من يقدم التصوف، وهكذا... ولقد سجل طاش كبرى زادة هذه المواقف في قوله: "إن العلوم التي يتوصل بها إلى السعادة الأبدية هي ما سأل عنه النبي جبريل (عليه السلام) وهي تتصل بأصول الدين المسمى بالكلام، وعلم الفقه وعلم التصوف الذي هو ثمرة الإيمان وثمره الإسلام، ويدخل في كل ذلك علم التفسير وعلم الحديث".³

2.4- تداخل العلوم وتكاملها

لعل من أهم المبادئ التي أفرزتها حركة تصنيف العلوم عند العرب، الإقرار العام بمبدأ تداخل العلوم وارتباطها فيما بينها، إما في الموضوعات، وإما في طرق التحصيل وأوجه النظر المنهجية. ولقد تم الإلحاح في سياق ذلك على ضرورة الالتزام بنسق معين في الترتيب والترقي في التحصيل والتعلم، وذلك تحقيقاً للبعد التربوي/التعليمي السليم في عملية التعلم والتعليم، وقد لخص طاش كبرى زادة هذا الموقف تلخيصاً جيداً فقال: "... ثم العلوم على تكثر درجاتها، إما موصلة للعبد إلى مولاه، أو معينة على أسباب السلوك، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من القصد، ولكل واحد رتبة ترتيباً ضرورية، يجب تنزيل كل منها في رتبته، فينبغي أن يراعى الترتيب في تحصيلها، فيبتدئ بالأهم فالأهم، إذ البعض طريق إلى البعض، ومن وفق لرعاية ذلك الترتيب والتدرج فقد فاز فوزاً عظيماً".⁴ ومن هذا المنطلق، دعا إخوان الصفاء في مقدمة رسائلهم إلى ضرورة الالتزام بالترتيب الذي وضعوه لها، لأنه تصور يعكس في نظرهم الطريق السليم لتحصيل العلوم والمعارف بأيسر السبل، كما أنه في تصورهم. ترتيب طبيعي ومنطقي، تفضي فيه الرسالة السابقة إلى اللاحقة. ومن هنا فقد طلبوا ممن وقعت بيده هذه الرسائل أن يتلطف ويعنى بها غاية العناية، وأن يستفرغ جهده في إيصالها لمن يرغب فيها، شيئاً فشيئاً، أي رسالة بعد رسالة، على الترتيب الذي بينوه وصرحوا به هم أنفسهم: "الواجب على من حصلت عنده هذه الرسائل وهذه الرسالة (الرسالة الجامعة) أن يتقي الله تعالى فيها بأن يهتم ويعتني بها غاية العناية... ويتلطف في استعمالها وإيصالها شيئاً بعد شيء لمن رآه شديد الحاجة إليه، عظيم الحرص عليه... فمن أنس منه رشداً ورجاً فيه خيراً... دفعها إليه رسالة رسالة على الولاء شبيه الغذاء والتربية والنماء، وكالدواء للصحة والشفاء... على الترتيب المبين في الفهرست...".⁵

ولقد ترتب عن إقرار العلماء المسلمين بتداخل العلوم، القول بتكاملها المعرفي، وهذا مبدأ يفيد أن العلوم كلها. على اختلافها في ذاتها، وموضوعاتها، ومناهجها ومقاصدها المباشرة. مترابطة متعاونة. ذلك أنها تتصل وتتكامل فيما بينها على الرغم من التباعد الذي قد يظهر بين بعضها البعض. ولأن بعضها يفضي إلى الآخر، ولأن نتائج بعضها، يكون مقدمات لعلم أو لعلوم أخرى، ولأن موضوعاتها قد تشترك كلياً أو

¹ - الفارابي، أبو نصر محمد، تحصيل السعادة، تحقيق وتقديم جعفر آل ياسين، دار الأندلس، بيروت، ط. 2، 1983، ص. 49.

² - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر السابق، ص. 36-37.

³ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر نفسه، ص. 36-37.

⁴ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر نفسه، ص. 30.

⁵ - إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخلاصة الوفاء، ج. 21/1، المصدر السابق، ص. 45-46.

جزئياً، فهي كلها . وإن اختلفت . متضافرة، وبعضها يكون وسيلة للآخر.¹ صحيح أنهم فرقوا . في الإطار العام . بين العلوم الشرعية والعلوم الأجنبية أو العقلية، ولكن ينبغي التنبيه إلى أن هذا التمييز اتخذ صبغة تصنيفية ذات طابع منهجي، يقوم على النظر إلى العلوم، باعتبار طبيعة موضوعها، أو مرجعيتها، أو أصولها المعرفية. على أنه ظل في أذهان العلماء، تقسيم تكامل وليس تقسيم تعارض أو تنافر. ومن هذا المنطلق نجد نصوصاً كثيرة؛ ومواقف متعددة تكرر مبدأ تكامل العلوم والمعارف مما يعكس تحذر هذا المبدأ واستقراره لدى علماء التصنيف المسلمين. ويمكن في هذا السياق أن نشير إلى بعضها: فمن ذلك . مثلاً . ما ذهب إليه ابن حزم الظاهري (456هـ) من أن: "العلوم كلها متعلق بعضها ببعض... محتاج بعضها إلى بعض ولا غرض لها إلا بمعرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة".² ولا تخفى أهمية إشارة ابن حزم إلى أن مبدأ التكامل والترابط بين العلوم نابع من حاجة بعض العلوم إلى البعض الآخر، من جهة توقفها على بعضها البعض، ويدخل في هذا الإطار ما يعرف بالعلوم المقصودة لذاتها، والعلوم المقصودة لغيرها: أي تلك التي تتخذ وسيلة لعلوم أخرى بحيث تكون معطياتها العلمية أو التصورية أساً من أسس البناء العلمي لعلوم أخرى.³ وقد تتخذ هذه العلاقة بين العلوم، سلسلة من الترابطات العضوية التي تستغرق علوماً كثيرة، يكون فيها اللاحق نتيجة طبيعية لسابقه، بل إن توسيع مدارك الإنسان يقتضي بهذا الترابط والتكامل، ذلك أن إتقان علم من العلوم يساعد صاحبه على معرفة علم أو علوم أخرى، وبقدر إجادته الإنسان لعلوم معينة، تتوثق معرفته بالعلوم الأخرى وقد عبر ابن خلدون عن مظاهر الترابط والتداخل بين العلوم الشرعية . مثلاً . تعبيراً دقيقاً شاملاً، وسنورده على طوله لأهميته في بيان ما نحن بصددده، يقول: "وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص، أو بالإجماع أو بالإلحاق. فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير. ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات. ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث، ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه. ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد، وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر، والنعيم، والعذاب، والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام. ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليهما، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب...".⁴ وبصفة عامة فقد آمن علماء التصنيف العرب بتداخل العلوم واشتراكها في كثير من المعطيات والظواهر، بالإضافة إلى تآزرها وتعاضدها في تحقيق السعادة للإنسان، وإيماناً بمثل هذه المبادئ، فقد دعت جماعة إخوان الصفا إلى عدم معاداة أي علم من العلوم، وصرحوا في مناسبات كثيرة من رسائلهم بأن المذاهب الفلسفية كلها بما فيها الأعجمية، وكذا الآراء والأديان كلها، متساوية في المرتبة والمنزلة وأنه لا سبيل إلى المفاضلة بينها، ولذلك فهم ينصون على أن مذهبهم يستغرق المذاهب والعقائد

¹ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص. 137

² - ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، رسائل ابن حزم الأندلسي: رسالة مراتب العلوم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. 1، 1980، ص. 90

³ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 1248/3

⁴ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المصدر السابق، ج. 1026-1027.

والعلوم كلها.¹ ولعله من أجل ذلك انتقدهم أبو حيان التوحيدي انتقادات حادة، فاتهمهم بالتلفيق والحشو والاضطراب، ووصف فلسفتهم وعقائدهم بأنها مجرد خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات.²

3.4.- أهمية الموضوع في العلوم

ولقد ترتب عن الأخذ بتكامل العلوم وتضافر المعارف على اختلاف موضوعاتها ومناهجها، أن المصنفين العرب لم يتفقوا. كما سبقت الإشارة. حول عدد العلوم الأصول منها والفروع، فكان بعضهم ينتقد الآخر ويخطئه على توسيع دائرة، وبجمال هذا العلم أو ذاك. وقد يؤاخذ بعضهم الآخر على حصر موضوع العلم في دائرة ضيقة، وقد تتجه المؤاخذه إلى عدد العلوم المتفرعة وأنواعها، وقد ينتقد بعضهم على إدماج بعض العلوم في بعضها الآخر، وقد يكون الخلاف بينهم حول مواقع بعض العلوم، من حيث أفضليتها أو تهميشها وتقليل دورها ضمن سلسلة العلوم المعتمدة أو الأساسية.³ ولقد شغل الحديث عن "موضوع العلم" حيزا كبيرا من اهتمام علماء التصنيف: ذلك أن العلوم، كما نص على ذلك كثيرون من العلماء العرب. ترتبط بوشائج كثيرة وتتصل اتصالات متشعبة ومتشابكة حتى يصعب في أحيان كثيرة الفصل أو التمييز بين حدود هذا العلم أو ذاك، إذ يتعذر في حالات كثيرة تحديد بداية العلم ونهايته، بالنظر إلى موضوع اشتغاله، وقد عكست كثير من المحاولات التصنيفية العربية هذا التداخل، ونهت إلى آثاره ونتائجه الاستمولوجية والمنهجية. ولحل هذا الإشكال الأساسي في العلوم، فقد تم التركيز أولا، على ضرورة تحديد دقيق لماهية الموضوع ودلالته الاصطلاحية، لأنه على أساس من ضبط هذه الماهية وتحديدتها سوف يتم التعامل المنهجي مع كل العلوم بالنظر إلى أن كل علم، يشكل بمفرده. على الرغم من تداخلاته مع غيره من العلوم. نسقا مستقلا أو وحدة لها شخصيتها وطبيعتها المتميزة التي تسمح بعزلها ودراستها من جوانبها المختلفة بحيث تشكل فروع العلم المتعددة. وقد بلغت أهمية الموضوع درجة كبيرة من التقدير حتى صار التفاضل بين العلوم مبنيا على ما سموه بـ "شرف الموضوع". يقول الفارابي: "فضيلة العلوم والصناعات إنما تكون بإحدى ثلاث: إما بشرف الموضوع، وإما باستقصاء البراهين، وإما بعظم الجدوى الذي فيه سواء أكان منتظرا أو محتضرا...".⁴

كما أن أهمية الموضوع تظهر بصفة خاصة حين يقترن مفهوم أي علم من العلوم بموضوعه الذي يحدد العلم نفسه، إذ لا يمكن تصور علم من العلوم بعيدا عن موضوعه، أي عن مجال تحقيقه نظريا كان أم عمليا. ولذلك نظر علماء العرب في سياق تعريفهم "للعلم" إلى الموضوع على أنه هو المحدد الرئيسي لماهية أي حقل علمي، إذ يجب التذكير هنا بما سبق أن أشرنا إليه، من أن العلم في أحد مفاهيمه هو تنظيم المعارف وتصنيفها على أسس إيضاحية، بمعنى أنه يتعين بموضوعاته التي تكون قد حددت وعرفت بدايتها ونهايتها، أي أنها تصنف بحسب موضوع البحث فيها. وقد تشترك بعض العلوم في الاشتغال على موضوع واحد، ولكن كل علم ينظر إليه من زاوية خاصة، ولأغراض ومقاصد خاصة، وبمناهج خاصة أيضا، فضلا عن أن الاشتراك في الموضوع لا يعني الاتفاق المطلق، ذلك أن لكل علم مفاهيمه وجهازه الاصطلاحي الخاص الذي يحدد بدقة ووضوح لغته الواصفة، بحيث لا تشترك مفاهيم الألفاظ المستعملة في هذا العلم مع مفاهيم نفس الألفاظ في العلم الآخر، ولا ننسى هنا أن هدف الخوارزمي من كتابه "مفاتيح العلوم" هو حل هذه المعضلة الاصطلاحية/الدلالية التي تعوق تحقيق أكبر قدر ممكن من التفاهم والتواصل بين العلماء عبر تخصصاتهم المختلفة، وبينهم وبين غيرهم ممن يستفيد من نتائجهم داخل المجتمع الذي تتداول فيه تلك المصطلحات والمفاهيم والعلوم. يعرف ابن الأکفاني "الموضوع" في العلوم تعريفا دقيقا يقول فيه: "الموضوع: هو الشيء الذي يبحث في ذلك العلم عن أحواله التي تعرض له: إما لذاته، أو لما يشتمل عليه، أو لما يساويه، ومتى كان الموضوع كليا فالعلم الناظر فيه أصلي، ومتى كان جزئيا، فالعلم الناظر فيه فرعي كالطب بالنسبة إلى العلم الطبيعي، فإن موضوع الطب بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض، وهو مندرج

¹ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وجمال الوفاء، ج. 21/1، المصدر السابق، ص. 10.

² - التوحيدي، أبو حيان، الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين، ج. 5/2، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص. 132.

³ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص. 278.

⁴ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر نفسه، ص. 177.

تحت موضوع العلم الطبيعي، لأنه ينظر في الأجسام مطلقاً ولواحقها¹. ولقد أدرك علماء التصنيف العرب أهمية تحديد موضوعات العلوم، ومن ثم طالبوا المربين والمعلمين وكل من لهم صلة بالعملية التعليمية والتربوية، أن يتنبهوا للوظيفة الحيوية المترتبة عن حصر موضوعات العلوم بدقة، إذ أنها تتمايز بموضوعاتها²، كما أن نسبة كل علم تابعة لموضوعه كما يصرح بذلك الفقيه اليوسي، مما يفيد أن تصنيف العلوم يبنى على أساس النظر إلى حدود وطبيعة موضوعاتها، ولذلك تجدهم يصدررون التعريف بالعلوم المختلفة بالحديث عن موضوعاتها الكلية أو الجزئية بحسب أصلية العلم أو فرعيته. وهكذا فأقسام العلم الرياضي مثلاً تشترك في موضوع واحد يتفرع إلى أنواع كثيرة تشترك في التعاور على الموضوع نفسه، ولكن من زوايا مختلفة، مما يركي ائتلاف العلوم واحتياج بعضها للآخر، بسبب هذا الاشتراك الذي يجمع بعضها في الموضوعات التي يبحث فيها³. ومن ثم يجعلها مندرجة عند التصنيف ضمن وحدة كبرى أو قسم خاص من أقسام العلوم، يقول أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في هذا الشأن: "وأما العلم الرياضي: فهو العلم الباحث عما تجرد عن المادة في الذهن فقط... وأنواعه أربعة، علم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم العدد، وعلم الموسيقى، وذلك أن نظره في الكم، وهو إما متصل بأن يفرض بين أجزائه حد مشترك تتلاقى عنده أولاً، وكلاهما إما قار بالذات بأن يكون مجتمع الأجزاء في الوجود أولاً"⁴. ويقول عن العلم الطبيعي والعلوم المتفرعة عنه: "وأما العلم الطبيعي: فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي، أي المادي، وهو المحسوس من حيث هو معرض للتغير والانفعال والثبات في أحواله، وموضوعه الجسم من تلك الهيئة، وفائدته معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك والعناصر المولدات... ويتفرع منه عشرة علوم، علم الطب، وعلم البيطرة، علم الفراسة الحكيمة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم الأحكام النجومية، وعلم السحر، وعلم الطلسمات، وعلم السيمياء، وعلم الكيمياء، وعلم الفلاحة..."⁵. ويمكن التمثيل لبعض ما سبقت الإشارة إليه عن طريق هتين الترسيمتين:

1.3.4- العلم الطبيعي وأقسامه عند الفارابي⁶ (ت.339م):

يبحث في الأجسام الطبيعية وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام، كما يبحث في الأجسام الصناعية وفي أعراضها، وينقسم إلى 8 أجزاء عظمى، هي:⁷

- 1- السماع الطبيعي: (وهو ما تشترك فيه الأجسام الطبيعية البسيطة والمركبة من المبادئ والأعراض).
- 2- السماء والعالم: (الأجسام البسيطة من حيث وجودها وعددها وأجزائها، وما تشترك فيه).
- 3- الكون والفساد: (يفحص كون الأجسام وفسادها).
- 4- الآثار العلوية: (يفحص مبادئ الأعراض والانفعالات التي تخص الاسطقسات دون المركبة).
- 5- النظر في الأجسام المركبة من العناصر..
- 6- النظر في المعادن...
- 7- النبات وأنواعه.
- 8- الحيوان وأنواعه.

¹ - ابن الأکفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص.46

² - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المصدر السابق، ج.1، ص.6-7

³ - الفارابي، أبو نصر محمد، تحصيل السعادة، المصدر السابق، ص.57

⁴ - إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلاص الوفاء، ج. 21/1، المصدر السابق، ص.48

⁵ - الفارابي، أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، المصدر السابق، ص.111

⁶ - الفارابي، أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، المصدر نفسه، ص.111 وما بعدها

⁷ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص.155

2.3.4.- أقسام العلم الطبيعي عند طاش كبرى زادة (ت 968هـ):

يشغل هذا العم الشعبة الثالثة، ضمن الدوحة الرابعة، التي جعلها للعلم المتعلق بالأعيان: ذلك أن أقسام العلوم عنده تنتهي إلى سبعة، يسمى كل واحد منها دوحة، وتقسم الدوحة عنده إلى شعب مختلفة تمثل فروع العلم المعين،¹ كما تقسم الشعبة إلى "عناقيد". وهي عبارة عن المباحث المختلفة التي يبحث فيها هذا العلم أو ذلك. ويمكن بيان ذلك على النحو التالي:²

- | | |
|-----------------------|---------------|
| 1 - علم الطب | |
| 2 . علم البيطرة | |
| 3 . علم البيزرة | |
| 4 - علم النبات | |
| 5 - علم الحيوان | |
| 6 - علم الفلاحة | |
| 7 - علم المعادن | |
| 8 - علم الجواهر | |
| 9 - علم الكون والفساد | فروع |
| 10 - علم قوس قزح | العلم الطبيعي |
| 11 - علم الفراسة | (17 فرعا) |
| 12 . علم تعبير الرؤيا | |
| 13 - علم أحكام النجوم | |
| 14 - علم السحر | |
| 15 . علم الطلسمات | |
| 16 - علم السيمياء | |
| 17 . علم الكيمياء | |

ولتمثيل الكيفية التي تتفرع إليها الشعبة من عناقيد، نأخذ هنا علم الطب الذي يحتل في تصنيف أحمد بن مصطفى العنقود الأول من عناقيد الشعبة الخامسة، حيث سنلاحظ بوضوح اتجاه هذا العلم، إلى التدقيق والتخصص في فروع متعددة، تعكس في حقيقة الأمر اتساع مجالات هذا العلم وتوزعها لتشمل تفرعات جديدة لم تكن موجودة في التصنيفات القديمة:³

- 1 - علم التشريح
- 2 - علم الكحالة

¹ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر السابق، ص. 75

² - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر نفسه، ص. 303

³ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر نفسه، ص. 323

فروع علم الطب
(12)

3. علم الأطعمة والمزورات
- 4 - علم الصيدلة
- 5 - علم طبخ الأشربة والمعاجين
- 6 - علم قلع الآثار من الثياب
- 7 - علم تركيب أنواع المداد
8. علم الجراحة
- 9 - علم الفصد
- 10 - علم الحمامة
- 11 - علم المقادير والأوزان المستعملة في علم الطب
- 12 - علم الباه

وبصفة عامة، فقد استأثرت قضية موضوعات العلوم باهتمام المصنفين العرب منذ القدم، ويمكن القول، إن الأساس الذي بنيت عليه كل التصنيفات العربية، هو الأساس الموضوعي (نسبة إلى الموضوع) على الرغم من الاختلافات التي قد تبدو بينها من حيث درجة التركيز على هذا الأساس، الذي أصبح موجهاً رئيسياً لبعض العلماء، وليس أدل على ذلك من أن أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زادة) بنى كتابه "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم" على هذا الأساس. ولا تخفى أهمية هذا الكتاب الكبير، إذ يعد عند أغلب الدارسين أكبر موسوعة علمية عربية في تصنيف العلوم.¹ لقد شكلت العناية بموضوعات العلوم إحدى السمات المنهجية الكبرى في تاريخ التصنيف والبحث عند العرب، وآية ذلك أنك لا تجدهم يغفلون، حين تعرضهم لأي علم من العلوم، عن الإشارة إليه باعتباره مناط العلم ومحددًا لمنافعه وغاياته، بل محدداً لماهيته ومجالاته ووسائل العمل فيه، ومن هنا تعرف العلوم باعتبار موضوعاتها كما يقول حاجي خليفة.² ولذلك نجد المفكر المغربي أبا الحسن اليوسي، في سياق حديثه عن أهمية الموضوع في تحديد العلم وضبط مجال اشتغاله ينص على أنه سيعيد تقسيم العلوم باعتبار مناطقها وموضوعاتها، يقول: "وقد رأينا أن نعيد التقسيم باعتبار المناط... "وقد علم أن تمايز العلوم إنما هو بتمايز موضوعاتها".³ وإذا كان علماء التصنيف العرب قد اتفقوا على أن العلم حين يطلق، فإنما يقصد به مجموعة من القواعد المقررة التي يجمعها موضوع وغاية ومنهج،⁴ بالإضافة إلى كونه مدونا في كتب ومصنفات، فإنهم نهوا إلى أن هناك صنفين من أنواع العلوم هما: الأول: علم اكتسابي صناعي، والثاني: وجداني خيالي، ويندرج ضمن النوع الأول كثير من العلوم الطبيعية، والرياضية، كالطب، والصيدلة، والكيمياء والهندسة والبيطرة والفلاحة إلخ... وهذه عندهم هي العلوم الحقيقية لأنها خاضعة للتجربة الحسية، كما أن موضوعاتها محددة بدقة. وأما النوع الثاني: فقد أطلقوا عليه اصطلاح العلم القياسي، ليكون مقابلاً للعلم التجريبي، وأدرجوا ضمنه كثيراً من "العلوم" التي تكون بالإرادة والبحث وإعمال الفكر والوجدان.⁵ ومن هذا النوع الثاني أشاروا إلى "علم الفراسة"، وقد عرفه ابن الأكفاني بأنه: "علم يتعرف منه أخلاق الإنسان من هيئاته ومزاجه وتوابعه وحاصله: أنه الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن"،⁶ ثم يشير إلى طبيعة هذا العلم الحدسية فيقول: "ويقرب من هذا العلم قيافة الأثر وقيافة البشر،

¹ - عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص. 62

² - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المصدر السابق، ج 1، ص. 7

³ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، كتاب الفهرسة، تحقيق زكريا الخثيري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص. 138

⁴ - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص. 33-35-46

⁵ - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر نفسه، ص. 32، 35

⁶ - أبو علي اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص. 156

وليست علومًا اكتسابية، إنما هي تخمينات حدسية، وكذلك النظر في غضون الأكف وأسارير الجبهة ونحوها".¹ كما أشاروا أيضًا إلى علم تعبير الرؤيا، وعلم الطلسمات، وعلم السيمياء، وعلم السحر... وهي كلها أمور وجدانية تعتبر فيها طرق خاصة: "لا سبيل إلى ترجيح بعضها على بعض بالنظر، بل ولا إثبات شيء منها ولا نفيه، لأنها أمور وجدانية، ولكن حيث وجدت القدرة فثم القادر، والعيان شاهد لنفسه، والخبر لذاته، لا يترجح أحد طرفيه".² وبصفة عامة، فقد أدرك علماء التصنيف العرب أن العلوم كلها قابلة للتصنيف بما فيها تلك التي لا تندرج ضمن العلوم الحقيقية، لأنها وإن كانت غير خاضعة لقوانين التجريب العلمي، فإنها تشترك جميعًا في كونها ذات موضوع ومبادئ، ومسائل، وغاية".³ بالإضافة إلى أن العلماء وضعوا فيها كتبًا مدونة ضمنوها معطيات العلم ومبادئه طبقًا للمبادئ العامة التي وضعوها لتأليف الكتب في أصناف العلوم المختلفة.⁴ وهو ما اصطلاحوا عليه بالرؤوس الثمانية التي تفيد في تقديم مجموعة من المعطيات العلمية المتصلة بموضوع العلم المراد التأسيس فيه. وتكون لهذه الرؤوس أو المبادئ وظائف تعليمية وتربوية تنبني على إرشاد القارئ وتبصره بما لا بد من معرفته قبل الشروع في تحصيل مسائل العلم ومشكلاته يقول ابن الأكفاني في سياق حديثه عن طرق التعليم والتعلم: "ورتبوا في صدر كل كتاب تراجم تعرب عنها سموها الرؤوس وهي ثمانية: الغرض، والمنفعة، والسمة، والواضع ونوع العلم، ومرتبة ذلك الكتاب، وترتيبه، ونحو التعليم المستعمل فيه".⁵ ولذلك فقد أُلغيت بعض العلوم ولم تندرج ضمن العلوم المصنفة، لأنه لم تدون فيها مؤلفات تبين موضوعاتها ومسائلها وغاياتها وطرق تحصيلها، وقد أشار (طاش كبرى زادة) إلى ما سماه "علم الوضع"،⁶ فجعله علمًا في طور التكوين والنشأة لم تدون فيه بعد مؤلفات تعرف به فقال: "وهذا علم نافع في الغاية، إلا أنه لم يدون بعد... وهو يبحث في تغير الوضع وتقسيمه إلى الشخصي والنوعي والعام والخاص".⁷

5. - النتائج المعرفية لفلسفة تصنيف العلوم في الفكر الإسلامي

لم يكن الانطلاق في عملية تصنيف العلوم في الفكر الإسلامي من أرضية ستاتيكية (ساكنة)؛ متوجهة إلى رصد التسميات ورصف البناء؛ المتوقفة على المعطى المادي لأجزاء مختلف العلوم وذلك الترتيب الرتيب؛ الذي يؤسس لفلسفة مادية منوطة بالعملية الإجرائية الشكلية. إنما كانت تلك العملية "مؤسسة" على الرصد الدقيق والموضوعي لبنية المعارف والعلوم؛ من خلال "تصور" إسلامي منتج؛ يقوم على مجموعة من المفاهيم الشمولية لقضايا الكون والإنسان. وقد عمد ذلك التأسيس الإسلامي لفلسفة تصنيف العلوم إلى توثيق النص الديني الذي كانت روحه تسري في تفاصيل أي عمل تصنيفي، فجاءت تلك النظرة التي توائم بين العقلي والنقلي وبين المادي والروحي، وبين الهداية والمعاش. ولا ريب أن تلك الفلسفة كانت تروم مجموعة من الأهداف والغايات، والتي ظهرت إشارات في ثنايا تلك الأعمال، صريحة وملفقة، وهي الإشارات القمينة بالتحميم والاستحلاء في محاولة بناء أي نخط من أنماط التوجيه الحضاري. فالاهتمام الحضاري كان السمة البارزة في النسق المعرفي لتصانيف العلماء المسلمين الذين أبدوا روحًا علمية "صادقة"؛ من خلال الجمع بين قراءة الوحي، وقراءة الكون؛ كأبرز مقوم من مقومات فلسفة تصنيف العلوم؛ التي كان لها أبعاد حضارية بالغة التأثير في مسيرة العلم الإسلامي. لقد تركز في المفهوم العام للمنهج العلمي الإسلامي مجموعة من المعايير التي تحكم بنيته العامة، والذي من أهم معاييرها العالمية، والشمول؛ لكل ما هو أخلاقي أو إنساني، في إطار

¹ - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص. 122

² - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص. 128

³ - أبو علي اليوسفي، الحسن بن مسعود اليوسفي المغربي المالكي، القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، المصدر السابق، ص. 181

⁴ - ابن جماعة، أبو عبد الله الكنايني الحموي، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. 3، 2012، ص. 29

⁵ - ابن الأكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، المصدر السابق، ص. 33

⁶ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر السابق، ص. 125

⁷ - طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج. 6/1، المصدر نفسه، ص. 125

التواصل الحضاري المبني على مجموعة القيم الروحية والأخلاقية، وهي نفسها نداءات النصوص الدينية الإسلامية التي هي المرتكز الأول في بناء أي عمل منهجي تطبعه صفة الإسلامية. وقد كان مبحث تصنيف العلوم - باعتباره رافدا من روافد العمل المنهجي - يتقاطع والأبعاد الإيديولوجية والأخلاقية، والتي تمثلت فيها كل الخصائص الفكرية والثقافية لذلك المنهج الإسلامي في العلوم، وشكل زاوية مهمة وأساسية في صياغة النسق الفكري الإسلامي؛ الذي كانت له ضوابطه وقواعده المنهجية بروح أخلاقية. وقد تمثل لنا بجلاء في فلسفة تصنيف العلوم ملائمة تلك الفلسفة للأوضاع المادية، والحالة الاعتقادية الإيمانية في المجتمع الإسلامي؛ فارتبطت تلك الفلسفة منذ نشأتها وتطورها بين الإيمان بالله؛ والمعرفة والعلم، وأحيط منهج تصنيف العلوم بمنهاج الاستدلال العلمي، ومنهج إثبات حكمة الله سبحانه، فكان هذا المنهج هو نفسه منهج التفكير الحضاري. وإذا قرأنا في مختلف تصانيف العلماء المسلمين؛ فإننا نجد أن القاسم المشترك الذي نراه في أنساقها هو الاحتكام إلى مقاييس العقل - الذي هو أساس قيام مختلف الحضارات - ذلك العقل الموصول بالإيمان بالله واجب الوجود؛ الإيمان التذوقي والوجداني. فالإنسان بعقله الذي يتمتع به وتطلعاته التي تجيش في كيانه؛ إنما هو الجهاز الأول والعدة الكبرى لتحقيق المعرفة. وصاحب البصيرة الكلية لا يمكن أن يطاوعه عقله على دراسة التاريخ أو الطبيعة مثلا بمعزل عن يقينه العلمي بحقيقة الكون والإنسان والحياة، ولا على دراسة النشأة الإنسانية وتطورها بمعزل عن التأمل في النشأة الكونية في مجموعها؛ بالنظر في وجود الله وخالفته للكون.¹ فكلما كان الأساس العلمي المعتمد عليه في الإيمان قويا؛ كلما كان الإيمان قويا، فالعلم الإسلامي عصمة من الانحراف الإيمان، والراسخون في العلم هم أقرب الناس إلى الإيمان الصحيح؛ لأنهم يقفون على أرض صلبة؛ يستكشفون من فوقها عالم الغيب فلا يعلمونه وإنما يؤمنون به إيمانا صحيحا. فالأساس الذي يدرك به الغائب هو الشاهد من الخلق الكوني، والوجود بصفة عامة بفعل القياس (أي قياس الشاهد على الغائب) الذي يتركز في طرق إجرائه على مدلولات العقل. ولا ريب أن القاعدة الكبرى التي تنهض عليها شتى فروع معارف العلوم (- التي صنفها العلماء المسلمون-) هي التأمل في إمكان أن يكون هذا البنيان الكوني كله قائما دون أن يسند إلى دعامة خلق أو تدبير من قبل فاطر حكيم أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فإذا انتهى الباحث من ذلك إلى يقين علمي سليم انسكب له من ذلك ضياء اليقين إلى الحلقات العلمية الفرعية الأخرى؛² التي إذا اتجه إلى دراستها أن يتخذ في ذلك مفتاحا أساسيا لا بديل عنه ولا بد منه؛ ألا وهو التبصر بالحقيقة الكلية المتمثلة في مجموعة: الإنسان والكون والحياة، وفوقهما حقيقة الحقائق وغاية الغايات وهو الله. وللأسف فقد كان المنهج العقلاني هو سلاح الفلسفة المادية التي طغت على الحضارة المعاصرة سواء في أصولها النظرية أو في تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية؛ فتغلبت على الضمير الديني واستعملت لذلك الغرض سلاحين حادين: سلاح المنهج العقلاني وسلاح الأخلاق الاجتماعية. أما في المجال العقائدي؛ فإنها حاربت الدين باعتباره ظاهرة بشرية خارجة عن نطاق الاستدلال العقلاني؛ نشأت عن تحليل الإنسان القاصر المستضعف الخائف، وأما في المجال الأخلاقي المجال الاجتماعي فإنها تحكم على الدين بأنه إيديولوجية الرجعية التي تخدم مصالح الطبقات الثرية.³

وتفنيدا لمزاعم تلك المادية التي أنكرت التدخل الديني، ومنهج العقلاني؛ يبرز لنا في فلسفة تصنيف العلوم ذلك المنهج الواقعي؛ الذي اعتبر الواقع المادي والواقع الإنساني عنصرا أساسيا في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي. فلا يخفى أن الوحي (قرآنا وسنة) قد أحدث في العقول ثورة منهجية في المعرفة خصوصا، وفي البناء الثقافي عموما، فبعدما كانت الثقافة اليونانية العالمية بوجه عام تنطبع بالطابع التجريدي؛ إذ تسيطر عليها الفلسفة اليونانية بتجريدتها العقلي والفلسفة الغنوصية بتجريدتها الروحي؛ وجه الإسلام العقول إلى العالم المحسوس متمثلا في آيات الكون، وفي حياة الناس، وجعله مصدرا للمعرفة ومنطلقا أساسيا في بناء الإصلاح، وتكونت من ذلك ثقافة جديدة ينطلق فيها العقل

¹ - محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر، دمشق، 1981، ص. 127

² - محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، المرجع نفسه، ص. 130-131

³ - أحمد عروة، العلم والدين: مناهج ومفاهيم، دار الفكر، دمشق، ط. 1، 1987، ص. 08

الإسلامي في مشروع التحضر صياغة وتطبيقاً من واقع المادة وواقع الإنسان ، وهو ما ظهر جلياً في المنهج التجريبي للعلوم الكونية ، وفي المنهج الواقعي للعلوم الفقهية والعقدية، وهو ما دفع التحضر إلى أوج ازدهاره.¹ فالواقعية هي طريقة منهجية للفكر والسلوك ومتى أهملت استبدلت بتلك المناهج المثالية التي تتسم بالتجريد والسلبية المنهجية. ولذلك اكتسبت المنهجية العلمية في تصنيف العلوم معنيين هما: منهجية في سياق وضعي وأخرى في سياق إيماني وجداني. فالمنهجية الوضعية في الغرب ارتكزت على فهم جزئيات الحياة بالعلوم، والقوانين التي تفسر وقائع الطبيعة، والاعتماد على الاختبارات التجريبية، للتوصل إلى المعرفة التي تضع حدودها في إطار الفهم الجزئي للوجود. أما المنهجية في الإطار الحضاري الإسلامي فتتجاوز حدود المعرفة في إطار الفهم الكلي للوجود، فالإسلام يحيط بفهم كليات الحياة؛ وذلك لأنه يفسرها تفسيراً شاملاً للأبعاد النهائية. وكما رأينا؛ فإن المنهجية الإسلامية تضع في اعتبارها الوجدان أو المعرفة الحدسية كأحد مقومات المعرفة الإيمانية؛ التي تتجاوز القصور في المعرفة الوضعية. وقد ارتبطت تلك المنهجية بالإطار الحضاري، وأدت إلى تطويع منهج التفكير لتحقيق غايات أخلاقية وتربوية في تطبيق نتائج العلوم؛ التي تنعكس على معيشة الإنسان واجتماعيته وعلى حل مشاكله بالعمل الجاد والمستمر وتوجيهه في كافة مجالات الحياة: الاقتصادية، التربوية، العلمية... الخ. فغاية المعرفة في التصور الإسلامي هي التقرب إلى الله وعبادته والإفادة من الطبيعة والحياة بالقدر الملائم، لذا فالتصور الإسلامي لا يفصل بين المعرفة والعمل.² والتصور الإسلامي يجمع بين المعرفة والعمل بالفكر؛ الذي هو أرفع وأجل النعم على الإنسان، فدونه لا تكون هداية أو ممارسة حياة، وبذلك اشترط الشرع سلامة العقل ويقظته؛ ومن ثم الحفاظ على سلامته التي هي مسؤولية ومقصد شرعيين؛ ومن ثم يستجوب توجيه الفكر إلى اجتناب الضرر ومنع الإفساد في الكون وجلب النفع، وبذلك يوجه العلم النافع وجوباً لمصلحة الجميع في دينهم ومعاشهم، ولذلك اتجه الكثير من مصنفي العلوم المسلمين إلى تقسيم المحمود والمذموم من العلوم.³ والمتأمل في الوضع الإسلامي اليوم من حيث منهجية التفكير التي عليها المسلمون؛ يدرك بحق أن الأزمة التي تعانيها الأمة الإسلامية هي في قدر كبير منها أزمة فكرية؛ تتمثل في عطالة الفكر الإسلامي عن إنتاج سبل التنمية، وعطالته بالتالي عن إحداث النهضة، ذلك أن هذا الفكر أصابه من الانحراف عن خصائصه الأصيلة؛ التي تكونت بالدفع القرآني؛ ما عطل فيه القدرة على تبين المسالك الصحيحة، سواء في مستوى الفهم لإدراك الحقيقة النظرية، أو في مستوى التخطيط لرسم المشاريع العملية.

خاتمة

قد تكون العلوم متعددة بتفرعاتها الجزئية و أصنافها لكن القول حول معيار تصنيفها دوماً يبقى واحداً عند فلاسفة الإسلام، و أي حديث عن المنطلقات في كيفية التقسيم يعود بنا إلى جوهرية إشكاليات الفلسفة الإسلامية بين التقليد والتأصيل، إضافة إلى دعوى رد كل معايير ترتيب العلوم إلى الموروث من المستوى النظري و العملي عند فلاسفة الإغريق، فإننا نجد النزعة التأصيلية التي تنطلق من المستوى الديني مع محاولتها التوفيق بين عقلي و نقلي، و حضر هذا التصنيف مع أغلب فلاسفة الإسلام. كما نلمس الجدة مع تقسيم ابن حزم و إخوان الصفاء، و للتعقل و الإشراف حضور في ترتيب مختلف العلوم كالعلم الإلهي والطبيعي، ونعني هنا بالعلم الإلهي الجانب الميتافيزيقي، الجانب الذي يهتم بمعرفة الباري عز وجل، ومعياراً آخر من العلوم يذكر العلوم العقلية التي يندرج ضمنها الفقه، القراءة،... الخ وهنا يصبح الحوار حول معيار تصنيف العلوم من منطلق ديني أمراً أدى بالفلسفة إلى فقدان و إبطال بعض معارفها و تأخير الفلسفة لحساب علوم أخرى و هذا شأن التهافتين، أما ابن خلدون فلم يسر في نفس الدرب بل أيد بعض العلوم مع إتباعها بنصوص نقدية. وإذا كان تصنيف العلوم في الفكر الإسلامي في المرحلة الأولى (الوجهة التقليدية) أكثر منطقة في هيكله العام، ترابطاً واندراجاً، فإنه في المرحلة الثانية (الوجهة التأصيلية) كان

¹ - عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص. 41

² - علي جمعة وآخرون، بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ج. 2، تقديمه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط. 1، ص. 231

³ - أبو حامد محمد بن محمد، الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1/ 4، 2004، 2076 ص.

أكثر منطقية في نسقه الداخلي: تواصل بين العلوم وربطها بواقعها، وتوجيهها لها في خدمة الحقيقة الدينية الإسلامية التي ظلت الغاية الدائمة لمنشأ العلوم وتطورها.

توصي الدراسة بإعداد مزيد من الأبحاث العلمية في علم التصنيف عند العرب والمسلمين، والتعريف بالتراث العربي التصنيفي سواء على المستوى المحلي أو العالمي، وذلك من خلال المؤتمرات ونشر الأبحاث العلمية الجادة من خلال النشر الأجنبي وتوسيع مقررات التصنيف لتشمل موضوعات تعرف بنظم التصنيف العربية الإسلامية ومدى تشابها مع النظم الغربية الحديثة.

قائمة المراجع

- ابن الأكفاني. إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تقلد ومراجعة محمد عوامة، اعتناء وضبط حسين عجمي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط.1، 1994
- ابن تيمية. مقدمة في أصول التفسير، حققه محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1988 - ابن حزم. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي. رسائل ابن حزم الأندلسي: رسالة مراتب العلوم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.1، 1980 - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي. مراتب العلوم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط.1، 2004 - ابنسينا، أبوعلينا الحسن بن عبد الله. رسالة في أقسام العلوم العقلية، من كتابها تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1876
- ابن منظور. لسان العرب، مادة صنف، دار المعارف، القاهرة، 2008
- إخوان الصفا. رسائل إخوان الصفاء وخلافاء، ج. 21/1، مراجعة خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي سي آي سي، لندن (المملكة المتحدة)، 2017
- الأعمش، عبد الأمير. المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط. 2، 1979
- الأعمش، عبد الأمير. المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991
- باشا، أحمد فؤاد. ابستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي، مجلة منبر الحوار، ع. 16، السنة 4، شتاء 1990-1989
- البوطي، محمد سعيد رمضان. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر، دمشق، 1981
- التوحيدي، أبو حيان. الامتناع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين، ج. 5/2، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت
- جمعة، علي وآخرون. بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ج. 2، تقلد طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط.1، 1998
- حاجي، خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1965
- الحموي، أبو عبد الله ابن جماعة الكفاني، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط.3، 2012
- الخوارزمي. مفاتيح العلوم، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط. 2، 1981
- الخولي، منى طريف. العلم و الاعتبار و الحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية الى اللاحتمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987

- روزنتال، فرانز. علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد، مكتبة المثنى، 1963
- الزمخشري. أساس البلاغة (صنف)، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، القاهرة، 1953 - الدفاع، علي بن عبد الله.
- العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1983- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتيان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتيان في علوم القرآن، ج. 7/1، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الرياض، 2004
- عبد العزيز، محمد حسن. المصطلح العلمي عند العرب: تاريخه ومصادره ونظريته، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000
- العراقي، أحمد الطاهري. تقسيم العلوم عند الغزالي، المعارف، ع. 3، 1942
- عروة، أحمد. العلم والدين: مناهج ومفاهيم، دار الفكر، دمشق، ط.1، 1987
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 4/1، 2004
- الصالح، صبحي إبراهيم. علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 15، 1984
- الفارابي، أبو نصر محمد. إحصاء العلوم، تحقيق وتقديم وتعليق عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط.3، 1968- الفارابي، أبو نصر محمد. تحصيل السعادة، تحقيق وتقديم وتعليق جعفر آل ياسين، دار الأندلس، بيروت، ط. 2، 1983
- قاسم، محمد محمد. المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996
- طاش كبرى، زادة. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968
- ماير، أرنست. هذا هو علم البيولوجيا: دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ترجمة عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 277، يناير 2002
- محمود، زكي نجيب. أسس التفكير العلمي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1977
- محمود، زكي نجيب. جابر بن حيان، مكتبة مصر، القاهرة، 1961
- موسى، جلال. تصنيف العلوم عند العلماء المسلمين، مجلة المسلم المعاصر، السنة 11، العدد 41، ديسمبر 1985
- النجار، عبد المجيد عمر. عوامل الشهود الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006
- النجار، عبد المجيد عمر. مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1992
- النجار، عبد المجيد عمر. مراجعات في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008
- النعيمي، محمد سليم (مترجم). تكملة المعاجم العربية، مراجعة جمال الخياط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1982
- اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود المغربي المالكي. القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم، تحقيق الأستاذ حميد الحماني، مطبعة شالة، الرباط، ط.1، 1998
- اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود المغربي المالكي. كتاب الفهرسة، تحقيق زكريا الخثيري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009

- The New Encyclopedia Britannica. Propaedia outline of knowledge and guide to Britannica, Chicago, Encyclopaedia Britannica, 1998.